قراءة نيرينا رستومجي Nerina Rustomji عن الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم

اعداد

أ.م. د. مصطفى عبد الستار مول

mol2014mol89@gmail.com

Mustafa Abdulsattar Mull

وزارة التربية العراقية / مديرية تربية بغداد الكرخ الثانية

Iraqi Ministry of Education / Directorate for Educational Baghdad (Karkh second)

ملخص البحث

يمثل هذا البحث: قراءة تحليلية لآراء نيرينا رستومجي Nerina Rustomji عن المناقشات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم، عبر كتابها (الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة) الذي يعد من أحدث البحوث الاستشراقية عن الجنة والنار، تحتل تلك الجدالات العقلية بين النبي الأكرم وبين الملأ من قريش عن طبيعة الجنة والنار، كما أنّ السور المكية تتكلم عن أحداث اليوم الآخر وما في الجنة من أشكال النعيم، وأنواع العذاب في الجحيم ، حيث تقرر السور المكية الأولى : أنّ الدنيا ستزول في نهاية المطاف ثمَّ يحدث بعث الأموات من القبور والحساب وما يعقبه من مصير إلى الجنة أم إلى النار، كانت هذه العقائد غريبة عن العرب ومثيرة في الوقت نفسه لهم ، ومع ذلك تتابعت سور القرآن المكية عن عقيدة يوم القيامة مناقشة ومقررة لهذه العقيدة العظيمة في الإسلام .

الكلمات المفتاحية: الجنة والنار، القرآن، كفار مكة

Research Summary

This research represents: Derayah Nerina Rustomji **views on the discussions in Mecca about the concepts of the Day of Resurrection in the Holy Qur'an, through her book (The Garden and the Fire: Heaven and Hell in Islamic Culture), which is considered one of the most recent Orientalist studies on heaven and hell. The Prophet Muhammad discussed with the leaders of the Quraysh about the nature of heaven. And Hell, in the Meccan surahs that talk about the events of the Last Day and the forms of bliss in Paradise and the types of torment in Hell. These beliefs were foreign to the Arabs and at the same time exciting to them. However, the Meccan surahs of the Qur'an about the doctrine of the Day of Resurrection continued discussing and establishing this great doctrine in Islam.**

key words: Heaven and Hell - The Qur'an - The infidels of Mecca

المقدمة

الحمد لله الذي لم يزل دائمًا وخبيرًا بالأسرار عالمًا ، خلق الموت والحياة ليبلونا أيّنا أحسن عملًا، وجعل للجنة والنار طرائق واضحة وسبلًا، وبعد :

- أهمية البحث:

يعد موضوع الجنة والنار من الموضوعات الرئيسة في القرآن الكريم ، وخاصة في السور المكية التي تتكلم عن أحداث اليوم الآخر وما في الجنة من أشكال النعيم وما في النار عذابات الجحيم، وهذه النتيجة مُسلم بها منذ السور المكية الأولى ، إذ يقرر القرآن الكريم أنَّ الدنيا ستزول في نهاية المطاف وما يعقبها من بعث الأموات والحساب ثم المصير إلى الجنة أم النار، كانت هذه العقائد غريبة عن العرب ومثيرة لهم في الوقت نفسه، ومع ذلك تتابعت سور القرآن المكية عن عقيدة يوم القيامة مناقشةً ومقررةً لهذه العقيدة .

يقدم هذا البحث (قراءة نيرينا رستومجي Nerina Rustomji عن الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم) تصور موجز لمفاهيم المكيين عن الجنة والنار عبر رؤية نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji في كتابها (الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة) الذي يعد من أحدث البحوث الاستشراقية عن الجنة والنار في القرآن الكريم ، إذ يتضمن هذا البحث دراسة لأبرز المناقشات المكية عن اليوم الآخر، والتي جرت منذ أوائل ظهور السور القرآنية الأولى في مكة ، تلك الجدالات العقلية بين النبي الأكرم (ﷺ) والملأ من قريش عن طبيعة الجنة والنار، وما حدث فيها من: نقاش معمق عبر روايات وصلتنا عن تقبل العرب لهذه العقيدة الجوهرية في القرآن أو رفضها؛ وفقًا لقراءة نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji لتلك الأحداث.

• إشكالية البحث: تنبثق إشكالية البحث من: الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم عبر كتاب (الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة) لنيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji ، ودلالات تلك الطروحات والمفاهيم على تقرير عقيدة الجنة والنار في القرآن، إذ يسعى البحث للإجابة عن جملة من الأسئلة في ثنايا مطالبه ، أهمها:

١ . ما أهمية الآخرة في المفهوم القرآني؟

٢ . كيف واجه كفار مكة : سور القرآن الكريم التي تتحدث عن اليوم الآخر؟

٣. كيف أثرت عقيدة الجنة والنار على مسار الدعوة الإسلامية في مكة ؟

٤ . ما أبرز المفاهيم الأُخروية التي أثارت حفيظة المكيين واستدعت تلك المناقشات والجدالات عنها ؟

• منهج البحث: اعتمدت في هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي في تناول الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم عند نيرينا ((Nerina عبر تنسيق البيانات الخاصة بالموضوع ، وتنظيم المعلومات وعرضها عبر مباحث ومطالب متناسقة، ودراستها وفقًا للمنهج العلمي.

• حدود البحث: حدود هذا البحث يرسمها عنوانه (قراءة نيرينا رستومجي Neri-na Rustomji عن الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم) الذي يتناول قراءة نيرينا ((Nerina لمناقشات المكيين حول عقيدة اليوم الآخر في القرآن الكريم ، دون بقية مفاصل الكتاب الذي ضمَّ جوانب متنوعة ومفاصل مهمة عن هذه العقيدة القرآنية، وقد اشتملت الدراسة على مقدمة وتمهيد وخاتمة وبينهما مبحثين.

• الدراسات السابقة: يتميز الموضوع بالسبق والحداثة ، فلم يطلع الباحث على دراسة تتناول كتاب (الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة) للمستشرقة

نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji والذي تُرجم إلى العربية عام (٢٠٢٣م) فضلًا عن دراسة الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة فيه.

التمهيد: رستومجي وكتاب الجنة والنار:

كتاب (الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة) للمستشرقة نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji الباحثة في التاريخ الإسلامي في جامعة كولومبيا الأمريكية، والكتاب صدر باللغة الانكليزية عام (٢٠٠٨م) ثمَّ ترجم إلى العربية عام (٢٠٢٣م) بطبعته الأولى عن: المركز الأكاديمي للأبحاث، بترجمة العراقية (رغد قاسم) يتألف الكتاب من (٢٨٤) صحيفة من القطع المتوسط ، ومؤلف من سبعة فصول :

الأول: الجنة والنار والأصول الإسلامية

الثاني: رؤى من الحياة الآخرة

الثالث: الثقافة المادية والأخلاق الإسلامية

الرابع: المناظر الطبيعية الدنيوية والحقائق الأرضية

الخامس: الإنسانية والخدم الصحية

السادس: جنات فردية ونيران ممددة

السابع: تراث الجنان

وحين يطالع القارئ غلاف الكتاب يجد بطاقة تعريفية موجزة عن الكتاب تمثل المفتاح للدخول إلى العالم الداخلي الذي يحتويه الكتاب، وفيه: (تكشفُ: نيرينا رستومجي، مؤلفة كتاب الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة عن الثقافةِ الماديَّة المتميزة والمفردات الجماليَّة التي طوَّرها المسلمون لفهم الجنَّة والنَّار، وتحديد المجتمعات، واستراتيجيَّات الدفاع التي تشكلت حول الوعد بعالم المستقبل، وتنطلقُ

فـي ذلك من مبدأ ذهنيّ لأيّ مسلم أو عربيّ فـي تصوره النمطيّ والمدرسيّ عن الجنّة والنّار بوصفهما المآل الأخير الذي سيناله فـي العالم الآخر بحسب أفعاله وأعماله، وهذا ما تتبناه السرديَّة الإسلاميَّة، وقدَّمت إجابات مبتكرة على أسئلة جوهريَّة تتعلَّق بالسياقات الحيويَّة والحياتيَّة التي ساهمت فـي تشكل صورة المسلمين عن العالم الآخر، وكيف أثرت لاحقًا أفكار العالم الآخر بعمق على السلوكيَّات اليوميَّة فـي المجتمع الإسلاميّ، وأدَّت إلى ظهور مدونة أخلاقيَّة شجَّعت على الامتناع عن الأشياء الفخمة، على أمل حيازتها فـي الجنة لاحقًا، اجتهدت رستومجي ((■■■■■■■ فـي تقديم دراسة دقيقة للنصوص والصور؛ إذ ربطت بعناية المشهد الطبيعيّ والديناميكيَّات الاجتماعيَّة للعالم الآخر بالنماذج والتوقعات الأرضيَّة، وتفحصت موضوعات مثل: الخدم والمحظيات والنساء مع أشياء من عالم آخر فـي الحياة الآخرة، وأشارت إلى أنَّ قصص المكافآت والعقاب قد ساعدت الدعاة على تعزيز الإصلاح الدينيّ))[1].

وبعبارة أخرى تبيّن نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji أهمية الآخرة في المفهوم القرآني، بقولها :» تاريخ الجنة والنار هو: أحد الطرق التي ربط المسلمون بها حياتهم بعالم الغيب، فهم المسلمون المرئي باستدعاء غير المرئي ، والعكس صحيح، إذ فهموا الغيب بمساعدة المرئي ، يرتبط العالم المرئي للعيان ارتباطًا لا ينفصم بالعالم غير المرئي «[2].

يتضمن هذا الكتاب العديد من الجوانب المهمة والغنية عن موضوع الجنة والنار، جمعت فيه الآيات القرآنية والروايات الإسلامية عن تلكم العقيدة الجوهرية، وحللتها

(١) ينظر: الغلاف التعريفي لكتاب: الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة ، للمستشرقة نيرينا رستومجي، ترجمة رغد قاسم، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى : ٢٠٢٣م .
(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي :٢٢

ودرستها وفقًا للرؤية الاستشراقية التي ترى: إنَّ القرآن الكريم كتاب فريد مؤلف من النبي محمد (ﷺ) وقد قدمت في سجلات هذا الكتاب المناقشات المكية في السور الأولى لعقيدة الآخرة، مُبرزةً جوانب مهمة من تلك المناقشات بعبارة موجزة التعليق عمقة في التحليل والدراية، فقد أظهرت تفاصيل الجنة والنار في هذا الكتاب من خلال التركيز على فرضية استشراقية تتخيل انعكاسات البيئة العربية الصحراوية على مفاهيم الجنة في القرآن، وقصص العقاب بحق المنكرين، هذه الرؤية الجزئية: تنبع عن رؤية استشراقية انتقائية تتعامل مع القرآن الكريم فتكيل له الاتهامات والأباطيل.

المبحث الأول: كفار مكة وتصورات الآخرة

تبحث نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji عن أسباب الرفض المجتمعي للإيمان بعقيدة اليوم الآخر ، وتبين المنطلقات المكية لرفض هذه العقيدة القرآنية المهمة في السو المكية، إذ ترى أنّ إيمان اتباع النبي(ﷺ) بهذه العقيدة يعطي لهم تفوقًا على أبناء مكة، قائلةً :» لم تكن أوصاف الجنة محض وعود مجردة قُطعت للمسلمين، بل كانت أيضًا طرقًا ادعى فيها بعض الصحابة: تفوقهم على الآخرين، وقد تمت مناقشة المناظر الطبيعية المباركة للجنة والحالة الطاهرة للأجساد والبيوت والحياة المليئة بالخدم والصحبة، ومنحها لمن قدموا أنموذجات للسلوك الصالح بين معاصريهم ولأجيال من المسلمين في المستقبل، وقد كان لبعض الصحابة أحلام سمحت لهم بالمشاركة والتحقق أيضًا من الحياة السعيدة التي كان محمد يقدمها، وربما سمح الحلم بالآخرة للمسلمين أن يتذوقوا شخصيًا ثمار عملهم على الأرض»[1].

ولا تقتصر عقيدة الآخرة على التفوق الفكري أو المعنوي على أقرانهم المكيين من

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٨٤

كفار مكة، بل لهذه العقيدة أهمية كبرى في إعطاء الحياة معنى ورونقًا لا تقدمه عقيدة دينية أخرى، فلولا الآخرة لكانت الدنيا بملذاتها الفانية ومتغيراتها الحتمية هي: الغاية من الحياة، فتصير إلى أن تكون هي الوسيلة والغاية، وهذا ما جعل من المجتمع المكي مجتمعًا يخضع للقوة والهيمنة والظلم بعيدًا عن القيم والأخلاق.

المطلب الأول: الآخرة وتحديات المكيين

استوعب قادة مكة خطورة هذه العقيدة على مجريات الأحداث فراحوا يشوهون هذه العقيدة ويزرعون الشك في قلوب الناس عنها، وقد لاحظت نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji ذلك في دراستها، إذ تقول:» ومع ذلك فإنَّ الجدل حول الآخرة لم يقتصر على النقاش فقط ، فقد تلت معركة الكلمات: معركة من الترهيب الجسدي للمسلمين على أيدي أهل مكة ، ويقدم ابن اسحاق نصوصًا عن مواجهة المسلمون من معاملة قاسية من قبل أهل مكة الذين تعرضوا إما للتهديد من قبل الحركة الدينية الجديدة أو شعورًا بأن من الحكمة معاقبة إخوانهم المكيين؛ لوقوعهم في فخ محمد، وغالبًا ما كان عقاب هؤلاء يرتبط بوعود الآخرة، تقول إحدى هذه القصص: أخذت قبيلة بني مخزوم ثلاثة من المسلمين الأول هم: عمار بن ياسر ووالديه، فاخرجوه من منزلهم وكشفوهم في الحرارة غير العادية في نهار مكة ويتابع بن اسحاق مرة عليهم الرسول، فقال: (صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[1]، وقد قتلت أمه لأنها رفضت ترك الإسلام»[2]، وبعيدًا عن العبارة غير الحيادية التي عبرت عنها نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji عن المؤمنين بعقيدة الآخرة من صحابة النبي (ﷺ) بزعمها

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م : ١٩٢

(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٥

(وقوعهم في فخ محمد) التي تقلل من شأن هذه العقيدة، وتشير إلى إختلاقها من قبل النبي(ﷺ) جاعلًا منها فخًا يصطاد بها المغفلين من اتباعه؟.

وهذا تجني واضح، فالناظر في القرآن الكريم يرى: تأكيده على عقيدة الآخرة حيث وردت كملة الآخرة في القرآن (١١٥ مرة) ولو كان الأمر استغلالًا لهذه العقيدة وجذب الاتباع لما أكدَّ القرآن عليها وكررها بشكل واسع في القرآن الكريم.

أهتم القرآن الكريم بإثبات حقيقة البعث، وبيان الحال في الحياة الآخرة، وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث والآخرة ، ولا يدركون إلَّا الحياة الدنيا، ويقولون: إن هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين...

تمثل عقيدة البعث لبّ الإيمان، وغاية من غايات الرسائل الإلهية، ولذلك تجد القرآن يحتفي ببيان حقيقة البعث، وتنبيه العقول إليه، وما من موضع في القرآن الكريم إلّا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه، بقياس قدرة الله تعالى على الإعادة على قدرته على الابتداء، وأنَّ البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثًا لا جدوى فيها، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥][1].

في حين ترى رستومجي(( )) : ادعاء أنّ عقيدة الآخرة في القرآن جاءت نتيجة لتحديات أبي جهل للنبي الأكرم (ﷺ) مما أدى لتأليف النبي (ﷺ) قرآنًا يرد على تلك التحديات، إذ تقول:» وردًا على تحديه – تعني أبي جهل – نزل الوحي على محمد، ويتابع ابن اسحاق ثمَّ أنزل الله :﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ

(١) ينظر: المعجزة الكبرى القرآن ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي : ٢٩٩

بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] وهذه المقاطع مميزة؛ ليس لأنَّ المعارضة المكية جزء من عملية ترسيخ العلم بالآخرة؛ ولكن لأنَّ تحدي أبي جهل نتج عنه وحي من عند الله»[١].

تنطلق رستومجي ((من منطلق أنَّ عقيدة الآخرة والقرآن الكريم عمومًا من تأليف النبي الأكرم (ﷺ) وما هي إلا نعكاسًا لمشاعر النبي (ﷺ) وأفكاره ، وفي هذا السياق تدعي أنَّ عقيدة الآخرة جاءت نتيجة للتحدي الذي وقع بينه وبين المكيين ، إلا أنّ هذه الفكرة تصطدم مع التحقيق التاريخي للنص، فبالرجوع إلى المصادر التي تتحدث عن أوائل السور نزولًا ، نجد أنَّ سورة المدثر تحتل المراتب الأولى من حيث ترتيب النزول ، فقد روى البخاري عن أبي سلمة:(أي: القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فقلت: أنبئت أنه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله: أي: القرآن أنزل أول؟ فقال:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] فقلت: أنبئت أنه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[٢]، وكفى بهذه الرواية شاهدًا على نقض فكرة التحدي ، فلا يكون التحدي إلا بعد مناظرة ومطاولة ، وهذه الآية التي تثبت عقيدة الآخرة تبين أصالة عقيدة الآخر في القرآن الكريم ومنذ أوائل السور فيه.

تنتقل نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji إلى قصة أخرى نسجتها من بنات أفكارها، تتضمن أنَّ آيات اليوم الآخر جاءت تلبية لرغبات المكيين في الجنان والأنهار وتخليصهم من قساوة الصحراء التي يعيشون فيها، حيث تزعم بقولها :» يمكن تقديم

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٤

(٢) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] : ٦/ ١٦٢

حجة مماثلة من قصة أخرى ذكر فيها: أبو جهل انّ محمدًا يدعي أنّ الناس سيحصدون خيرًا من جنان الأردن[1]، وتدل هاتان العبارتان على عالم بعيد عن الجنان والقصور والمعادن النفيسة، وعلى الرغم من أنّ كل النصوص التي تتناول المفسدين يفترض أن تكون مادة للقصص المسلية؛ لكن رغبات القادة تعكس حقيقة مادية تشبه أحوال مكة لا أحوال سوريا الكبرى أو العراق»[2].

وهذا الكلام يخالف الحقائق التاريخية والقرآنية، فلم يكن القرآن الكريم استجابة لرغبات المكيين، بل الناظر في سوره المكية يجد عمق التحدي لعقائد وسلوكيات المكيين، على سبيل المثال في سورة الأنبياء يأمر الله تعالى نبيه الأكرم بنقض عرى عقائد المكيين بأوضح العبارات، فقال سبحانه:﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) ... (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ – ١٩] وغيرها من الآيات التي تبين أنَّ القرآن الكريم لم يكن إلا انعكاسًا لرغبات المكيين، كما لا يمكن وصف تلك الآيات القارعة لثقافة مكة بأنها مادة للتسلية لا أكثر.

المطلب الثاني: الجنة وطموحات المكيين

تستشهد نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji بقصة أخرى لتعزز التصور المادي لمضامين الآخرة في القرآن الكريم ، زاعمةً أنَّ الجنة في القرآن الكريم تمثل ثورة وحلم يعكس الطموح المكي بالأنهار والجنان ، ولا ريب أن البيئة الصحراوية أشد البيئات صلة بالحرارة والنار وأنها تتطلب الماء والعشب لاستدامة الحياة فيها، إلا أنّ

(١) تقصد : مروج بلاد الشام وأنهارها .
(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٢

هذا لا يكفي ليكون دليلًا واضحًا يؤكد مزاعم نيرينا ((Nerina على أنّ القرآن الكريم كان استجابة لطموحات المكيين في تصوير الجنة ، فهي تقول:» يتم تكرار البعد المادي لطلبات القادة بشكل أكبر في المحادثة التالية فبعد أنَّ ردَّ محمد بأنّه مجرد رسول، وقال: إنّه لا يستطيع تقديم المعجزات التي يسعى إليها القادة، قام عبد الله بن أبي أمية يوبخ محمدًا على عدم تقديمه شيئًا مما طلبه وفي تصور مسبق لرحلة الإسراء والمعراج لمحمد قال عبد الله بن أبي أمية: إنَّه لن يصدق محمدًا حتى لو صعد في سلم إلى السماء وجاء بأربعة ملائكة يشهدون على أنه كان يقول الحقيقة وقد سجل ابن اسحاق بعد بضع صفحات موقفهم المفصل تمامًا :﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ – ٩٣] لم يحقق محمدًا أي: مطلب من تلك المطالب ومع ذلك وفقًا للمعتقدات الإسلامية فإنّ كل ذلك سيحدث في نهاية المطاف والينابيع وجنان الفواكه والثمار التي تسقى بأنهار من تحت الأرض والمنازل المصنوعة من معادن النفيسة ورؤية الملائكة واحتمال رؤية الله كلها مكافآت في الجنة .... فإن أمنياتهم تشير أيضًا إلى حقيقة أحوالهم المادية، وما يعد به محمد في العالم الآخر هو راحة من أرض صحراوية قاسية»[1].

لقد طرح القرآن صورًا عدة من نعيم الآخرة وعذابها ، ولم يقتصر على الصورة

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٢ – ٤٣

المناقضة للبيئة الصحراوية ، فالطعام والشراب والمنازل الفخام وغيرها من اللذائذ التي لا يختلف فيها البشر ولا يتصير نعيم بدونها ، فهي لا تختص بما يطمح إليه العرب من طيب المعاش، بل تشمل البشر كافة وهذا مشاهد محسوس في جميع الأقوام.

أما عن مطالب المكيين بتفجير الأرض ينابيع وانباتها جنات بساتين، فلعل القول الأنسب ما ذكره الفخر الرازي: إنّ آخر الآية بينت المعنى المقصود بالجواب عن طلبات الكفار، إذ قال تعالى في آخر الآية :﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني لا أدعي إلا الرسالة والنبوة، وأما هذه الأمور التي طلبتموها، فلا يمكن تحصيلها إلا بقدرة الله، فكان المقصود من هذا الكلام إظهار العجز والضعف وأنه لا يستقل بتحصيل هذه المعجزات التي طلبوها منه[١]، وقيل: إنّهم طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم مكة؛ لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم، فبين الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولما أقدموا على إيصال النفع إلى أحد وعلى هذا التقدير: فلا فائدة في إسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه بل الأولى في حالهم تركهم وعدم إجابتهم[٢]، كما أنَّه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة من تفجير الينابيع ثمَّ لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ: يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال، لكن إنزال عذاب الاستئصال على هذه الأمة غير جائز، لأنَّ الله تعالى أَعلَمَ أنَّ فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم، فلهذا السبب ما أجابهم الله

(١) ينظر: التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ : ١٢/ ٥٣٨

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب،ا بن عادل الحنبلي (المتوفى: ٧٧٥هـ) تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية –بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م :١٢/ ٣٩٥

تعالى إلى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة[١].

تعود نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji إلى التأكيد على فكرة :» التناقض بين طقس الحجاز وصورة الجنة الخضراء، فإنَّ صورة تدفق الأنهار والعيون تشير إلى أنَّ رؤية الجنة في القرآن كانت ستنال إعجاب أولئك الذين ادركوا قسوة الحياة في طقس جاف»[٢]، تشير في هذا النص إلى دعوى أن عقيدة الجنة في القرآن ترتبط بصورة أساسية بما تفتقره البيئة العربية من عناصر الحياة كوفرة المياه والزروع والأشجار .

إنّ تصوير البيئة العربية بهذه القسوة المفجعة لا يرتقي إلى الموضوعية في وصف الطبيعة، فلكل طبيعة جوانب الجمال والبشاعة، فللغابات جمال الأشجار والظلال وفيها برودة الرطوبة والظلام حتى تصل في جوانبها إلى الظلام، لذلك لم تكن الصحراء العربية موطنًا موحشًا لهذه الدرجة التي تصورها نيرينا رستومجي متغافلة عن جوانب السحر والجمال في ليالي تلك الصحراء التي تغنى بها الشعراء وعانقت بسحرها نجوم السماء.

وتكشف لنا المستشرقة الأمريكية كونستتين كولي الأستاذة في جامعة فيسار في نيويورك عن مسألة ربما تثير جدلاً لكنها تستحق الانتباه حين تقول:» إنَّ العرب عبروا البحار والمحيطات حين خرجوا من أرضهم يبشرون بالدين الجديد وحتى أرضهم الأصلية تحمل اسم شبه الجزيرة العربية؛ لأنَّ البحار تحيط بها ورغم ذلك فإنهم لا يأبهون إطلاقاً بالبحر»[٣].

(١) ينظر: التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي: ٢٠/ ٣٥٩

(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ١٢٥

(٣) نقلا عن مقال : الصحراء في الأدب والمخيلة العربية، طلحة جبريل، موقع جائزة القذافي الدولية لحقوق الإنسان ، على الرابط : [illegible]

وبعيدًا عن الاستقراء الجزئي للعيوب الجغرافية للجزيرة العربية، فإنّ القرآن الكريم طرح نعيم الآخرة بصورة تختلف وتتفوق على نعيم الدنيا بدرجات لا تتخيل، يقول رشيد رضا :» لا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شئونهم في الدنيا؛ لأنَّ لذلك العالم سننًا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكول والمشروب، فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أو جوه، وخمرها ليس فيها غول يغتال العقل، ولا يصدعون عنها ولا ينزفون، ولبنها لا يعتريه فساد، ولا تخالطه جنة – ميكروبات– أمراض، وكذلك فاكهتها وثمراتها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لا تفسد، قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، وكذلك أمزجة أهلها هي أصح وأسلم من أمزجة أهل الدنيا «[1].

إنَّ الأفكار المادية التي تعاملت مع القرآن الكريم أنكرت على الدين عمومًا الدعوة إلى الإيمان بما وراء الحسّ؛ من الإيمان : بالله وملائكته واليوم الآخر والحساب والجنة والنار، وكل ما لا يقع في مجال المدركات الحسية التي هي عمدة العقل المادي في الحكم على الأشياء وقبولها أو رفضها، أي: أنَّ المادية تغرق الناس في الشهوات ليتخذوا من حبّها دينًا وينصرفوا عن دين الحق[2]، ومن هذا المنطلق ترى نيرينا رستومجي ((Neri-na Rustomji إنّ :» الثقافة المادية للعالم الآخر تمَّ فهم الجنة والنار من خلال ما فيهما من أشياء مادية أكثر من أي شيء آخر»[3]، وهذه الرؤية ليست غريبة على رستومجي

(١) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة النشر: ١٩٩٠ م : ٩/ ١٣٥

(٢) ينظر: الإستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته ، عبد المنعم محمد حسنين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة العاشرة١٩٧٧ م: ٨٩

(٣) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٢٦٥

التي تنطلق من الثقافة المسيحية في رؤيتها لعقيدة الآخرة في القرآن ، ففي تقولها تلمح إلى مرجع هذا القول ، حيث تقول:» انزعج المسيحيون من المسرات الجسدية للجنة، وكان التذوق والاستماع والرؤية والشعور بالمتعة ... وبالنسبة لعلماء الدين المسيحيين قدمت الجنة الإسلامية الدليل النهائي على أنَّ الاسلام كان دينًا يفتقر إلى الروحانية، وبالنسبة للمسيحيين تتعارض المادة والروح، وإذا كانت المادة فاسدة بالخطيئة الأصلية فمن الواضح عدم إمكانية أن تكون محلًا للبركة الإلهية وعلى النقيض من ذلك منح الإسلام الملذات امتيازًا من خلال الأمر بأنّه إذا امتنع المرء عنها في هذه الحياة فسوف يحصل عليها بدرجة مختلفة نوعًا وكمًا في الحياة التالية»[1]، وهذه الرؤية تجانف الحقيقة القرآنية التي تؤكد على تنوع النعيم الأخروي بين المسرات الجسدية والروحية، بينما المنطق يقرر: إنَّ الاقتصار على النعيم الروحي دون الجسدي نقص وقلة ، يقول القرآن :﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وهذا ما يراه الناظر في آيات القرآن ، ومن النصوص التي وصفت وصف القرآن للجنة ما قاله الجاحظ :» رأيت الله جل جلاله ذكر الجنّة في كتابه فحلّاها بأحسن حلية، وزيّنها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه ومحلّ أنبيائه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[2].

المبحث الثاني: مشاهد الجحيم وكفار مكة

تتناول نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji جانبًا مهمًا في مجريات المناقشات المكية لمفاهيم الآخرة مع النبي الأكرم (ﷺ)، ألا وهي زيارته إلى عالم الآخرة وهي

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٢٦٧

(٢) الرسائل الأدبية، عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ : ١٢٣

المسماة في الكتب الإسلامية برحلة: الإسراء والمعارج، وما تضمنتها من مشاهد أُخروية أثارت اهتمام المكيين.

في خضم المناقشات المكية التي جرت بين النبي محمد (ﷺ) وبين الملأ من أهل مكة، ظهر حدث أثار جدلًا واسعًا عرف فيما بعد بحادثة الإسراء والمعراج، تقول نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji :» تتمتع رحلة الإسراء والمعراج ضمن الروايات الإسلامية بجودة شبه أيقونة وبدءًا من كتب الفن في العصور الوسطى إلى الزخارف المعاصرة ... فإنَّ صورة محمد وهو يركب البراق في سماء الليل هي أشهر تصوير لمحمد أنّه بمنزلة صورة سماوية تماثل الحج الأرضي، كما إنَّه يمثل الصعود الروحي لروح الإنسان في التصوف الإسلامي والرحلة المقدسة، لا لأنَّ محمدًا زار العوالم السماوية فحسب ، ولكن لكون زيارته منحت محمدًا مكانة خاصة لا يمكن تحقيقها إلا من خلال المعجزات»[1].

تتابع رستومجي ((▮▮▮▮▮▮ سرد الرحلة إلى عالم الآخرة ، وأهميتها في الجدالات المكية حول عقيدة الآخرة ، إذ تقول أنَّ هذه الرحلة بمثابة رؤية عينية لمحمد النبي (ﷺ) عن تضاريس العالم :» بغض النظر عن إسناد رحلة الإسراء والمعراج، فمن الواضح أنَّ علم الكونيات في طبقات السماء وفرَّ مساحة للمروريات الإسلامية، لتأكيد ذاتها بين الأديان الأخرى وطريقة صعود محمد جعلته في قمة الهرم النبوي، وبشكل أعمق قدمت حكاية الإسراء والمعراج صورة للحاجة العميقة لما هو إعجازي ومذهل، عالم المستقبل ليس مجرد مكافأة للأبرار، ولكنه في الوقت ذاته مشهد يقدم السعادة سواء أصدقت أم لا ، قدمت رؤية محمد للعالم الاخر تضاريس للحياة الآخرة»[2]، فقد ذهب

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٦٧

(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٦٨

النبي بنفسه لرؤية العالم الآخر وقدم أثناء رحلة الإسراء والمعراج: الدليل النهائي على وجود العالم الآخر لأنه زار معالمه واختبرها مكانيًا[1].

وتستمر نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji في ذكر أهمية رحلة الإسراء والمعراج إلى العالم الآخر، حيث تستطرق إلى حدث مهم فيها ألا وهو رؤية النبي (ﷺ) لنار جنهم أولَّ مرة، تقول:»صعد محمد سُلمًا شفافًا حيث رأى النار لأول مرة وأغمي عليه، وزار بعد ذلك كل طبقة من طبقات السماء التي يحرسها نبي مختلف من الأنبياء التوراتيين»[2]، وهذا الوصف المستفيض لرحلة الإسراء والمعراج يمهد لدراسة مشاهد النار في القرآن الكريم التي استثارت المكيين واستفزت جدالاتهم الحارة عن تلك النار الغائبة.

المطلب الأول: المكيون وحراس الجحيم

أثارت مشاهد الآخرة في القرآن جدلًا واسعًا في المجتمع المكي، إذ ذكرت سورة المدثر وصفًا موجزًا عن حراس النار، عبرت عنه رستومجي ((: أنّ مضامين القرآن عن النار أثارة جدلًا أوسع مما تضمنته سور القرآن عن الجنة ونعيمها ، إذ تقول:» والأكثر أهمية عند التفكير في رواية الأصول أنَّ أبا جهل لم يكن فقط على دراية بتفاصيل النار، ولكن اتهاماته تشير الى وجود غيره في مكة أنَّ مناقشة شجرة الزقوم علانية تشير إلى الاعتراف بها، ولا يهدف أبو جهل من ذكر تفاصيل الحياة الآخرة إلى تقديم عرض لتضاريسها، ولكن لتوضيح الطبيعة السخيفة لآيات محمد ونقض شرعية الدين الجديد في حين أنَّ البهجة في الجنة قوبلت بالسخرية، فإنَّ رعب النار هو: الذي يستحق الجدل

(١) ينظر: الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٦٧

(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٦٧

العام والاستنكار»[1].

والجدل المكي عن طبيعة النار في اليوم الآخر يؤكدها كريستيان لانج بقوله:» إنها مسألة مثيرة للاهتمام؛ في البحوث والدراسات الغربيَّة؛ لاحظوا أنَّ الجنَّة في القرآن أكثر ذكرًا من النَّار، وقد ادَّعى بعضُ الباحثين الغربيين أنَّ الجنَّة تحتل دورًا أكثر أهميَّة في القرآن من النَّار، أنا لستُ متأكدًا من أنَّ ذلك صحيح؛ لأنَّ بعض الناس قد يَختلفون، ولكن من الناحية الكميَّة؛ فإنَّ في القرآن – على الأقل في حساباتي – يعطي المزيد من الاهتمام للنَّار عن الجنَّة، وعلى أية حال أعتقد: أنَّ النَّار في الإسلام موضوع يستحقُّ المزيدَ من اهتمام العلماء»[2]، وهذا الاهتمام الذي أولته السور المكية بتوضيح طبيعة النار في اليوم الآخر.

ومن أهم الملاحظات المكية التي نقلتها نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji عن طبيعة النار، ما ذكرته من نفي:» عمرو بن هشام بشدة فكرة: وجود شيء وراء هذه الحياة، ومن هنا جاء لقبه أبو جهل ويبدو أنّه أحد قادة قريش الذي ادركوا مدى تهديد رسالة محمد الأخروية للحياة الاجتماعية في مكة، ولم تكن تهديدات أبي جهل في نص ابن اسحاق: حافزًا فقط للتدخل الإلهي في شكل ملاك لحماية محمد ولكنها تقدم ايضًا أفضل القرائن لكيفية تلقي أهل مكة للفرضية القائلة: إنَّ الحساب ينتظر كل إنسان، وقد تلقينا من الخطابات اللاذعة المسجلة لأبي جهل أول تلميحات نصية محددة لسمات النار فعلى سبيل المثال: يتحدث أبو جهل عن الملائكة التسعة عشر المذكورين في القرآن: يخبركم محمد بأنَّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ، ليجتمع كل عشرة

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٥

(٢) مقال منشور بعنوان: حوار مع البروفيسور كريستيان لانج حول الجنة والنار في القرآن الكريم، د. عبدالرحمن أبو المجد، تاريخ الإضافة: ١٤/ ١/ ٢٠١٦ ميلادي – ٢/ ٤/ ١٤٣٧ هجري.

على واحد»[1].

يقف أبو الجهل على عدد الملائكة الحارسة للجحيم، كيف لها أن تسيطر على أعداد المناهضين لدين النبي الأكرم (ﷺ) ؟ جاءت تلك الوقفة لأبي جهل في سياق الاستهزاء بعقيدة الآخرة كما تذكر نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji بقولها :» يتضمن الجدل في كل من السيرة والقرآن، ردَّ الله على استهزاء أبي جهل لصالح الحلف المكيين، وفي كلتا الحالتين: اختار أبو جهل الإشارة إلى الادعاءات المادية غير الواقعية للآخرة، فيتساءل: كيف يمكن فقط لتسعة عشر شخصًا التغلب على مئات الرجال»[2].

قبل الخوض بعدد أصحاب النار ينبغي التعليق على عبارة نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji عن المادية غير الواقعية للآخرة ، وهذه الفكرة قديمة قال بها كفار مكة ومن وافقهم من الملاحدة الذي نكروا القرآن وجحدوه، يقول القرطبي:» لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجرًا من جنسها لا تأكلها النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار، وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معاني زوروها في أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثمَّ التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن»[3].

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٣

(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٤

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني

أما عن الرواية التي ذكرتها نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji في سياق المناقشات المكية ، فقد رواها الطبري عن ابن عباس، لما أنزل قوله تعالى:﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] سمع أبو جهل بذلك، فقال لقريش:» ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنَّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم – أي: العدد الكثير– أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم»[1]، بهذا المنطق كانت أوائل تلك النقاشات المكية.

وقد اختلفت السرديات الاسلامية في فهم هذا العدد من الملائكة الذين يقومون بوظيفة حراسة النار، وتلخص على وجوه، أبرزها :

الأول: تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها ، ولا يعني حصر الملائكة بهذا العدد ...

والثاني: قيل على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، مالك وثمانية عشر ملكا...

والثالث: يحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبًا، أي: قادة لمجموعات كبيرة من الملائكة ، فذكر عدد القادة دون غيرهم...

والرابع: يحتمل أن يكون تسعة عشر ملكًا بأعيانهم يحيطون بجهنم ، وعلى هذا أكثر المفسرين، وهذا الوجه لا ينكر، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق، كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق[2]، وقد غاب عن كفار مكة

وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة،الطبعة: الثانية ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م: ١٥/ ٨٦

(١) جامع البيان، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م : ٢٣/ ٤٣٦

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ، شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) :١٩/ ٧٩

ومن شايعهم: أنّ الواحد من هؤلاء الملائكة يملك من القوة ما يواجه به البشر جميعًا، ولذلك عقب الحق على ما سبق بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١][1].

وقد حاولت السرديات الإسلامية تناول هذا الإشكال الذي طرحه أبو جهل بروايات ضعيفة لا تصح؛ لأسباب كثيرة ، منها انقطاع السند، وتكلفا فيما لا يتكلف فيه من اخبار الساعة والغيب التي لا يمكن إثباتها إلا بالقطعيات من النصوص الثابتة ،ومن الروايات في هذا السياق ما نقل عن طاوس: أنّ الله عز وجل خلق مالكًا، وخلق له أصابع على عدد أهل النار، فما من أهل النار يعذب إلا ومالك يعذبه بأصبع من أصابعه، فوالله لو وضع مالك أصبعًا من أصابعه على السماء لأذابها[2].

وبعيدًا عن الروايات التي أغرقت الكتابات الإسلامية في الكشف عن طبيعة جهنم، فإنَّ سياقات الآيات القرآنية ذاتها تبين أنَّ هذا العدد جعله الله فتنة لكفار مكة ، في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] تقول الآية: جعل هذا العدد؛ ليكون سببًا لفتنة السامع إذا كان في علم اللَّه تعالى أنه ممن يبتغي الفتنة، فأما من عُلم أنه ينظر في آيات اللَّه مسترشدًا، فلم يزده ذلك إلا إيمانًا وتصديقًا؛ إذ علموا : أنَّ الله تعالى أراد أن يمتحنهم بأنواع المحن، فآمنوا به، وسلموا ذلك لله تعالى؛ فيكون في جعل عدتهم تسعة عشر شدة على الكفرة، إذ كان سبب كفرهم؛ فلذلك

(١) ينظر: الجنة والنار، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة: السابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م: ١٩

(٢) الحبائك في أخبار الملائك عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تحقيق: خادم السنة المطهرة أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م: ٦٥

سمى المحنة على هذا... وجائز أن تكون فتنتهم هي: أنهم ازدادوا بذكر هذا العدد كفرًا إلى كفرهم؛ لأنهم نظروا إليه بعين الاستخفاف والاستهزاء، ولم ينظروا إليه بعين التبجيل والتعظيم، فازدادوا بذلك كفرًا[1]، وهذه التفسيرات الإسلامية مهما اختلفت درجة الوثاقة والصحة فيها، فهي قدمت جهودًا ثمينة في بيان طبيعة النار الغيبية في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: جهنم وشجرة الزقوم

من الجدالات التي دارت في العهد المكي عن طبيعة جهنم في الآخرة ، ما نقلته نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji عن جدالات أبي جهل مع النبي الأكرم (ﷺ) بخصوص شجرة الحجيم التي سماها القرآن الكريم بشجرة الزقوم في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّوم (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيم (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيم (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ – ٥٠] وفي موضع آخر يقول الله تعالى:﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

كانت هذه الآيات مثارًا للجدالات والنقاشات عن تلك الشجرة التي يهدد بها القرآن الكريم كفار مكة ، تقول نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji:» تطورت الصلة بين أبي جهل وبين الوحي وصفات الآخرة عندما ردَّ أبو جهل على آيةٍ عن شجرة الزقوم المخيفة في النار، والتي تشبه ثمارها المرة رؤوسًا شيطانية تتدلى من أغصانها (يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد، قالوا: لا قال عجوة

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ– ٢٠٠٥ م: ١٠/ ٣١٦

يثرب بالزبد، والله لأنَّ استمكنا منها لنتزقمنها تزقمًا)... ويقترح أنَّ ثمار شجرة الزقوم هي في الواقع: تمور من يثرب الاسم الأصلي للمدينة المنورة وللمفارقة، فإنَّ أحد معاني الزقوم هو: بالفعل التمر بالزبدة؛ لذا فإنَّ اقتراحه كان جزءًا من عرض لفظي مسرحي، ومع ذلك في حين أن تصريحاته تعتمد على الأشياء المادية في الحياة الآخرة، فإنها تكشف أيضًا عن افتراض أنَّ تلك الأشياء ستكون نسخًا طبق الأصل عن مثيلاتها على الأرض وتعطي تصريحاته فكرة عن الفهم المحدود لزمان والمكان بعد التغيير»[1].

تؤكد نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji دلالة كلمة الزقوم على التمر الممزوج بالزبد بقولها : هي في الواقع تمور من يثرب ، فقد روي عن ابن عباس، أنَّه قال: « لما ذكر الله الزقوم خوف به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد؟ قالوا: لا، قال: نتزبد بالزبد، أما والله لأن أمكننا منها لنتزقمها تزقما، فأنزل الله عز وجل فيه:﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:٦٠] ، يقول: المذمومة:﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦٠]»[2].

ترجع أقدم المصادر اللغوية العربية إلى أنَّ كلمة الزقوم، تعني بلغة إفريقية: الزبد بالتمر، ولذلك لما نزلت آية الزَّقّوم لم تعرفه قريش، فقدم رجل من إفريقية وسئل عن الزَّقّوم، فقال الإفريقي: الزَّقّومُ بلغة إفريقية، الزبد والتمر[3]، وهذا النص الموجز يدلل على تشوق المكيين لتحديد معنى الزقوم بالآية، لا لغرابة اللفظ، لكنَّ الغرابة تسمية

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ٤٤

(٢) البعث والنشور للبيهقي أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) ، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م: ٣٠٢

(٣) ينظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي(المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: ٥/ ٩٤

الشجرة بالزقوم ، لذلك ينقل الزمخشري نصًا مُهمًا عن مفهوم الزقوم عند العرب بقوله :» لم تعرف قريش الزقوم، فقال أبو جهل: إنَّ هذه لشجرة ما تنبت في بلادنا فمن منكم يعرف الزقوم، فقال رجل من أهل إفريقية قدم من إفريقية: إنَّ الزقوم بلغة أهل إفريقية هو: الزبد بالتمر، فقال أبو جهل: يا جارية هاتي لنا زبدًا وتمرًا نزدقمه... زقم الزقم: اللقم الشديد والشرب المفرط، يقال: إنَّه ليزقم اللقم زقمًا جيدًا، وبات يتزقم اللبن، والزقوم فعول من الزقم كالصيور من الصير وهو ما يزقم ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦]. يأخذ الله تعالى السموات والأرض يوم القيامة بيده ثمَّ يتزقفها تزقف الرمانة[١].

ومن الجانب اللغوي لفظة زقوم ترجع إلى جذر: زقم، تقول نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji: «إذا فإنَّ منظر الشجرة يتوافق مع جذر الفعل زقم، أي: ازدرد، أو أكل على عجل»[٢]، يقال: ازدردَ اللقْمة يزدردُها، وزردها يزردُها: إذا ابتلعها[٣]، ويقال: «يزقم اللقم زقمًا، أَي: يلقمها»[٤]، والمعنى اللغوي لمفردة الزقم لا ينفي تسمية شجرة بعينها بهذا اللفظ، لأنّه في اللغة: إذا وُصف غير العاقل بصفة تختص بالعاقل، أجري عليه حكمه، فإذا كان وصف الشجرة الملعونة بالزقم أي: الالتهام، فلا

(١) الفائق في غريب الحديث، جار الله، الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية ب ت: ٢/ ١١٧

(٢) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ١٢٩

(٣) ينظر: مجمل اللغة، لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م: ٤٥١

(٤) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ] ، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م : (٦/ ٢٦٣)

ضير أن تتصف بذلك من باب كونها تلتهم الكفار وتزيد من عذابهم.

ثمَّ تنتقل نيرينا رستومجي ((Nerina Rustomji إلى إسقاط مفهوم الرمزية على مضامين الآخرة ومن ضمنها شجرة الزقوم ، فتقول:» وللنار أيضًا شجرة رمزية... توضع شجرة الزقوم في أقسى الأماكن عقابًا في النار وتعمل شجرة الزقوم بوصفها نقيضًا لسدرة المنتهى، وكما ذكر في الفصل الأول أشار أبو جهل إلى شجرة الزقوم على أنّها: التمر المعجون بالزبدة الزقم ... تكتسب سدرة المنتهى في الأحاديث قيمة رمزية باعتبارها أقرب مكان إلى عرش الله فالقرب من الشجرة أقرب إلى الوجود في حضرة الله نظرًا لقيمتها الروحية، فإنَّ من المثير للاهتمام أنَّ الكتيبات العربية المعاصرة تصور سدرة المنتهى على أغلفتها، كما توضح الأحاديث أسباب الخوف من شجرة الزقوم ولا يقتصر الأمر على أنَّ رؤوسها: الشياطين، تأكلها المذنبون في النار، لكن قطرة واحدة من قيحها أو صديدها ستنتهي حياة الناس في العالم الأرضي ويقر هذا الاحتمال للتلوث مقياسًا لفهم ألم أولئك الذين يجبرون على تناول الأكل منها»[1]، وبهذا النص تكتمل الصورة المشوهة عن عقيدة الآخرة في أفهام المخالفين فبعد إضفاء الطابع الإيجابي لدلالة لفظ الزقوم (زبدة بالتمر) تنتقل الكاتبة إلى الاستعانة بالأسلوب الرمزي في تفريغ النص القرآني عن حقائقه، وهذه الطريقة معروفة وقديمة لدى المستشرقين، إذ جاء في موجز دائرة المعارف الإسلامية: إلى جانب التفسير الحرفي لنصوص القرآن نشأ تفسير رمزي النزعة وجد في ثنايا القرآن أفكارًا بعيدة عن المألوف أخذ خلالها الطريق إلى الرمزية ، وقد صارت المدارس المتطرفة ترى في هذا النقل والتحوير للمعنى الظاهر السبيل الوحيد لتفهم القرآن، وبذلك أهملوا التفسير التقليدي الذي لا يخرج عن نطاق

(١) الجنّة والنّار، نيرينا رستومجي: ١٢٨ – ١٢٩

اللفظ ، بل صارت أحكام القرآن في رأي أصحابها غير واجبة الاتباع[1]، وبهذا يتضح أنَّ القول بالرمزية يسلب المعاني عن كلمات القرآن وتسلب عنه الحقيقة الخاصة به، هذه موجز الجدالات التي طرحتها رستومجي ((Rustomji والتي عبرت عن سبيل القرآن الكريم نحو صياغة أمة جديدة.

الخاتمة

توصلت عبر هذه الدراسة إلى نتائج تلخص البحث الموسوم:(قراءة نيرينا رستومجي Nerina Rustomji عن الطروحات المكية حول مفاهيم الآخرة في القرآن الكريم) من أبرزها:

١. أهتم القرآن الكريم بعقيدة الجنة والنار في السور المكية ، وناقش كفار مكة وقرر تلك العقيدة بالحجج والبراهين.

٢. صوَّر الأسلوب القرآني الجنة والنار تصويرًا حسيًا بليغًا استثار المكيين ودفعهم لجدالات طويلة وصلتنا بعضًا منها كما طرحت نيرينا رستومجي.

٣. واجه كفار مكة: سور القرآن الكريم التي تتحدث عن اليوم الآخر بالاستهزاء والرفض عبر طرح مضامين الآخرة بالمقاييس الدنيوية المادية.

٤. تعد آيات خزنة النار وشجرة الزقوم من أبرز المفاهيم الأُخروية التي أثارت حفيظة المكيين واستدعت مناقشات مروية مع النبي الأكرم (ﷺ).

٥. إنّ الإيمان بعقيدة الآخرة يقدم لأتباع النبي محمد (ﷺ) تفوقًا على أبناء مكة الكفار بها عبر رؤية نيرينا رستومجي((Nerina Rustomji.

(١) ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨ م:٧/ ٢١٥٨

٦. تزعم رستومجي ((Rustomji إنّ آيات اليوم الآخر جاءت تلبية لرغبات المكيين في الجنان والأنهار وتخليصهم من قساوة الصحراء التي يعيشون فيها.

٧. رحلة الإسراء والمعراج تمثل : الدليل النهائي على وجود العالم الآخر حين رأى النبي محمد(ﷺ) بنفسه العالم الآخر وقدم تقريرًا مفصلًا عنه، والحمد لله على التمام.

ثبت المصادر والمراجع

١. الإستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته، عبد المنعم محمد حسنين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة العاشرة١٩٧٧ م.

٢. البعث والنشور للبيهقي أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) ، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٣. تأويلات أهل السنة ، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م.

٤. التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ .

٥. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة النشر: ١٩٩٠ م .

٦. جامع البيان، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٧. الجامع لأحكام القرآن ، شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة،الطبعة: الثانية ١٣٨٤هـ-

١٩٦٤م.

٨. الجنّة والنّار: النّعيم والجحيم في الثّقافة الإسلاميّة ، للمستشرقة نيرينا رستومجي، ترجمة رغد قاسم، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى : ٢٠٢٣م .

٩. الجنة والنار، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة: السابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

١٠. الحبائك في أخبار الملائك عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تحقيق: خادم السنة المطهرة أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

١١. الرسائل الأدبية، عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ .

١٢. سيرة ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

١٣. صحيح البخاري ، دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ .

١٤. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي(المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال (ب - ت).

١٥. الفائق في غريب الحديث، جار الله، الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية (ب ت).

١٦. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي (المتوفى: ٧٧٥هـ) تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية -بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .

١٧. مجمل اللغة، لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة -

بيروت، الطبعة الثانية – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

١٨. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .

١٩. المعجزة الكبرى القرآن ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي (ب– ت).

٢٠. مقال : الصحراء في الأدب والمخيلة العربية، طلحة جبريل، موقع جائزة القذافي الدولية لحقوق الإنسان ، على الرابط : https://www.gaddafiprize.org/TalhaAr.htm

٢١. مقال منشور بعنوان : حوار مع البروفيسور كريستيان لانج حول الجنة والنار في القرآن الكريم ، د. عبدالرحمن أبو المجد، تاريخ الإضافة: ١٤/ ١/ ٢٠١٦ ميلادي – ٢/ ٤/ ١٤٣٧ هجري.

٢٢. موجز دائرة المعارف الإسلامية ، تحرير: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ– ١٩٩٨ م .